قصة من الخيال العلمي

المارد المعدني

رؤوف وصفي

- ١ -

عام ٢١٧٧ .. المارد المعدني العملاق يخطو أول خطواته فوق الأرض.. أول إنسان آلي في العالم يسير فوق التلال الخضر.. وأشعة الشمس تنعكس على بشرته اللامعة.. كان يسير برشاقة تغلب عليها الخيلاء.. حقاً إن صوت قدميه لا يكاد يُسمع، ولكن الأرض كانت تهتز اهتزازاً خفيفاً تحت ثقل هذه الكتلة الضخمة.. بل إن الهواء سرت فيه رعدة من تلك الآلة العملاقة التي كانت تنبض وهي تخترقه.. كانت واضحة تلك الرشاقة في التصميم والتركيب المثاليين.. ثقل وقوة.. وطول بلغ مترين ونصف المتر.. كانت عيناه مروعتين.. تتوهجان كأنما بنار داخلية تتأجج من الذرات المشعة.. كانتا تستطيعان أن تريا أبعد مدى بواسطة ذبذبة تصدر باستخدام أشعة الليزر...

لقد بناه العلماء على شكل الإنسان.. ولكنهم كانوا من الحرص بحيث أنهم لم يعطوه وجهاً مميزاً.. كانت هناك العينان بآقيها مع إمكان تزويدهما بعدسات اضافية إذا استدعى الحال، رؤية ميكروسكوبية أو تلسكوبية.. وأيضاً بعض الفتحات الصغيرة الأخرى الحسية والصوتية.. ولكن فيما عدا هذا.. كان رأسه قناعاً من المعدن الرمادي اللامع.. كان أشبه بالإنسان ولكنه لم يكن إنساناً.. حقاً كان من صنع البشر ولكنه يتفوق عليهم.. لقد كان يعيش في حلم الإنسان.. في أساطيره.. منذ زمن طويل.. ذلك المخلوق العجيب الذي يمكنه أن يخدم.. أو يهدم بقوة خارقة...

كان يسير تحت سماء صيف صافية.. وفوق حقول فاضت عليها أشعة الشمس.. مخترقاً بساتين صغيرة ترقص وتتهامس في النسيم المنعش.. وكانت المنازل البيضاوية الزجاجية مبعثرة هنا وهناك.. تلك هي مساكن القرن الثاني والعشرين التي تدار الكترونياً.. وفيما وراء الأفق تبدو أطراف المصنع الهائل الذي يحول الطاقة الشمسية إلى قوة كهربائية تدار بها آلات المدينة كلها.. وحامت على ارتفاع منخفض بعض سيارات الأجرة الطائرة....

هناك أيضاً بعض الرجال والنساء والأطفال لوّحتهم الشمس يؤدون مهامهم بثياب متألقة فضفاضة تتطاير في الهواء المنقّى من الجراثيم أو أي تلوث.. ويبدو أن البعض كان يعمل.. رسام يقوم بتجربة في تآلف الألوان.. وملحن يجلس في حديقة منزله يعزف على الأورغ الالكتروني.. وعجوز وقد اضطجع في سريره الهزاز ومعه كتاب.. عاشقان يتبادلان كلمات الحب الخالدة.. طائفة من الأطفال في لعبة من ألعابهم القديمة قدم الأزل والتي تناسب أعمارهم.. لقد كانت الآلات تقوم بكل العمل.. أما الجنس البشري - في القرن الثاني والعشرين - فقد كان يعيش حياة رغدة..

كانوا يرون الإنسان الآلي يمر.. وكثيراً ما كان السكون يخيم عليهم وهم يلمحون ظله الضخم يجتازهم.. كان رداره الالكتروني يشعر بالنبضات التي تنمّ عن العصبية وعدم الراحة البسيطة برغم أنهم كانوا يثقون بهؤلاء العمالقة الآلية.. لم ينظروا إليه كوحش مفترس.. بل إنهم راحوا يتساءلون عن أول تجربة في العالم لترك إنسان آلي دون رقابة.. حرية كاملة في الحركة.. شعروا بالخوف الإنساني البدائي من الغريب والمجهول.. وفي أعماق عقولهم تنبثق أسئلة تحيّرهم.. ما الذي ينويه الإنسان الآلي؟.. وما هي نتائج ذلك الجنس الآلي الذي لا يقهر بالنسبة لسكان الأرض؟.. ثم ما أن اختفى بطوله الفارع وراء التلال الخضر حتى ضحكوا ربما ليخفوا قلقهم.. وعادوا لحياتهم السعيدة.. واستمر الإنسان الآلي في تقدّمه..

- ٢ -

جلس يغرق همومه في الخمر.. خطر بذهنه أن الجنس البشري لم يتغير فيه شيء خلال تاريخه الطويل.. ربما أصبح الكهف أكبر حجماً.. وحجر الصوان أكثر جودة.. ولكن الإنسان نفسه ليس أكبر حجماً ولا هو أشد صلابة...

لفتت نظره ومضة قوية لامعة.. ونظر من خلال الباب الزجاجي.. وتراجع في ذعر حتى سكب محتويات كأسه.. تمتم في رعب..

- « يا آلهي.. إنه الإنسان الآلي.. الإنسان الآلي ».

نهض مترنحاً.. ودار حول نفسه محاولاً أن يرى بوضوح من خلال الباب الزجاجي.. ثم نظر إلى الجالسين من حوله والذين كانوا متجاهلينه تماماً.. أشار إلى الخارج بيد ترتعد..

- « أنظروا.. إنه الإنسان الآلي.. الخطر الداهم.. لقد بنوه منذ ثلاث سنوات في مصنع الالكترونيات.. وهو أشبه بالإنسان بعقل إرادي يفكر ».

عاد يهمس لنفسه - « ... أشبه بالإنسان.. ولكنه يتفوق عليه ».

كان العملاق المعدني الضخم.. يتألق.. ويخطو عبر الحدائق.. في رحلة إلى المجهول.. استمر الرجل يصرخ في مرارة..

- « .. ألا ترونه؟.. إن الإنسان من لحم ودم لم يعد كفئاً لعالمنا الجديد اللامع.. عالم القرن الثاني والعشرين.. لقد أقاموا هذا المسخ المعدني ليحل محل الإنسان ».

لم ينبس أحد ببنت شفة.. حتى أنهم لم ينظروا إليه.. تعثرت في فمه الكلمات.. ثم تكلم محتداً..

- « .... إننا معشر سكان الأرض نشترك في رذيلة واحدة.. هي أننا نأخذ ما يعطى لنا.. سواء كنا بحاجة إليه أو لم نكن.. أيها الأغبياء.. الخطر هناك في الخارج.. وأنتم جالسون كالتماثيل.. إن الإنسان زهرة الخليقة وأنبل ما في الوجود..

ينزلق إلى الظلام ».

ارتفع صوته أكثر.. وجسمه كله يرتجف.. ثم قال بقمة اندفاعه:

- « .... ولكني لن أنحدر دون أن أقاتل ».

نفذ بسرعة من خلال الباب الذي فتح الكترونيا.. ورأى الإنسان الآلي الشامخ أمامه.... وفجأة بدا وكأنه احتوى كل ما كان السبب فيما حدث له.. شعر بكراهية شديدة له.. بدت وكأنها تشق جمجمته.. صرخ قائلاً..

- « استدر.. استدر وقاتل ».

توقف الإنسان الآلي.. واستدار ببطء.. التقط الرجل حجراً ورماه به.. فارتطم الحجر بالدرع الصلب بصوت مكتوم.. اندفع الرجل إلى الإنسان الآلي وهو يسب ويلعن وركل بحذائه وضرب بيديه كل ما استطاع أن يصل إليه من جسم المارد المعدني.. ولكن دون جدوى..

هتف الإنسان الآلي بصوت أجش عميق.. خال من أي تعبير أو احساس:

- « كفى.. وإلا أصبت نفسك بأذى ».

تراجع الرجل وهو يلهث.. من ألم سجحات جسمه.. ومن عجزه.. وقال بألم:

- « أعلم أنني لا أستطيع أن أؤذيك.. فأنا عاجز.. عاجز ».

رد عليه الإنسان الآلي.. بصوت أقرب ما يكون إلى الدهشة:

- « لا أستطيع أن أفسر تصرفك هذا.. إنك تشرب الخمر لتهرب من تعاستك.. هذا أمر غريب.. فالبشر كلهم سعداء ».

اندفع الرجل يجيب في سخرية:

- « ولم لا؟.. إن الآلات تستولي على الكرة الأرضية كلها.. وتجعل من الإنسان مجرد نبات طفيلي.. أنتم سبب تعاستنا.. أتسمعني.. أنتم سبب تعاستنا! ».

أهتز الصوت المعدني العميق.. بشيء أشبه بضحكة سخرية:

- « اعلم أنه ليست لي نوايا عدوانية.. وإنه قد تم تركيب ذاكرتي الألكترونية على أساس استبعاد هذه النوايا نهائياً ».

واسترسل يقول:

- « ... ولا حاجة لي لقتال أحد ».

- ٣ -

كان من الغريب حتى في عالم اعتاد الآلات التي كادت أن تدب فيها الحياة.. أن يقف الإنسان يجادل كتلة متحركة من المعدن والبلاستيك والطاقة الذرية.. ودهش الرجل لهذا، وأدرك كم هو ثمل.. ولكن كان من الضروري أن ينفث حقده.. ويأسه.. وأن ينطق بأية كلمات قد تخفف من حدة التوتر الذي يشعر بأنه ينفجر داخله.. لقد هدمت هذه الآلات كل حياته.. أفقدته كل المعاني النبيلة.. الحب.. الصداقة.. الحرية...

عاد الرجل يقول..

- « ... ولكنكم ستستولون على الأرض كلما زاد عددكم.. وعندما تبدأ قوتكم الخالية من الشعور.... »

قاطعه الإنسان الآلي..

-- « ومن أدراك أنني خال من الشعور.. إن أي عالم نفسيّ لا بد أن يقول لك إن الشعور وإن لم يكن بالضرورة من النوع الإنساني.. فهو أساس الفكر.. وأنا أفكر ».

تعلثم الرجل ولكنه عاد يجادل:

- « لا يهمني أن تشعر.. أو لا تشعر، ولكن المهم أنك المستقبل.. المستقبل الذي لا معنى له.. عندما يصبح الإنسان لا قيمة له.. كما أنا الآن.. لهذا فأنا أكرهك وأسوأ ما في الأمر أنني لا أستطيع التخلص منك ».

وقف الإنسان الآلي شامخاً كتمثال لآلهة القدماء.. ولكن صوته أهتز في الهواء الساكن:

- « إن حالتك شائعة.. فقد أنحدرت إلى الظلام بسبب التكنولوجيا المتقدمة.. ولكن لا تقارن نفسك بكل الجنس البشري.. إنك تفكر بطريقة خاطئة.. سيكون هناك دائماً رجال يفكرون.. ويحلمون.. ويواصلون كل ما أحبه الإنسان.. إن المستقبل لكم وليس للآلات ».

نظر الرجل إلى الإنسان الآلي.. وكأنه كائن من عالم آخر..

استمر الصوت المعدني العميق..

- « .... يدهشني أن رجلاً في مثل ذكائك لا يدرك هذا الأمر.. أي نفع من إنسان آلي.. فما أن تقدم العلم حتى استطاعوا بنائي.. آلة متخصصة لمعاونة الإنسان على أداء الأعمال الخطرة.. في غرفة بها إشعاع ذري.. رحلة إلى الفضاء تستغرق مئات السنين.. إن الفنانين والمفكرين وصانعي السلام لا يحتاجون إلى الإنسان الآلي.. فهم يحددون أهداف الإنسان.. ويحققون أحلامه ».

قال الرجل في حزن حقيقي:

- « إنك لا تقول الصدق ».

تحدث الإنسان الآلي.. بذلك الصوت المعدني العميق.. مؤكداً:

- « أيها الإنسان.. لقد صُنعتُ فقط للدراسة العلمية، وبعد بضع سنوات لن يكون لي أيّ غرض آخر.. فيسمحون لي بأن أتجول.. لا أؤذي أحداً.. لا هدف لي.. ولا معنى.. ليس لي رفيق.. ولا مكان لي في المجتمع البشري.. إنني وحيد.. أتظن إنني سعيد؟ ».

دار الإنسان الآلي على عقبيه لينصرف.. وبدا وهو يصعد التل القريب.. كإله معدني عملاق يتجه إلى السماء.. تهالك الرجل فوق العشب.. وشعر بأنه أصبح وحيداً.. في عزلة مخيفة.. ضائعاً.. مخلوقاً مغلوباً على أمره.. يبحث عن بقية ضئيلة من هدوء النفس.. والقناعة..

علقت في ذهنه الكلمات الأخيرة التي ألقى بها الإنسان الآلي.. وكان صداها لا يزال يتردد في أذنيه.. ويملأ الفضاء من حوله:

- « أيها الإنسان كم أنت سعيد الحظ.. لأنك تستطيع أن تحب.. وتكره.. وتتألم.. ثم تنسى.. ».

الكويت